

## الرسائل «المستودع المقدس» للأسرار

قراءة التاريخ من أسفل للمشاهير والأعلام



الرسائل تكشف خفايا خاصة وعمامة (لوحة للفنان آلان فالتييس)

التي كرس لها أطروحات أنطونيو غرامشي وجوليان بندا وإدوارد سعيد، لتضع المثقف في مواجهة الأزمات وتُزله من برجه العاجي، ليمارس دوره الإصلاحي والتنويري. فإرسال إلى رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك رسالته الشهيرة التي عنوانها «الصحيفة بـ» التي حمل فيها الكثيرين من المسؤولين الحكوميين وأعضاء المحكمة وآخرين عددهم بالإسماء في عريضته؛ مسؤولية إدانة دريفوس بطلب منه أن يرد على الناس إيمانهم بالعدالة الإنسانية.

## الأدباء والفلاسفة

تعددت رسائل الأدباء ما بين رسائل شخصية عائلية، على نحو ما فعل أنطوان تشيخوف بعد رحلته إلى الشرق الأقصى عام 1890، بعنوان «رسائل إلى العائلة»، إلى جانب ما كتفته الرسائل عن علاقته بأفراد أسرته؛ أمه وإخوته وزوجته وأصدقائه الكثيرين. أظهرت ولغا شديداً من تشيخوف بالإيمان والمناظر الطبيعية، وقدرة هائلة على وصف العادات والتقاليد والتخوع السكاني في البلاد التي كان يمر بها، فكتب عن اليهود والبولنديين الغارين من الإقصاء، وكذلك التقارر وسهول سيبيريا، وتضمنت الرسائل اعترافه لأخته بأنه يكتب من أجل المال.

وهناك أيضاً رسائل الشاعرة سيلفيا بلات إلى أمها، تسرد فيها علاقتها بالنساع تيد هيوز، منذ أن ارتبطت به، وتنامى علاقتها، إلى الشكوى منه بتعذر علاقته، وقسوته بضرها وإذائها البدني، وهو ما جعل جزءاً من رسائلها تذهب إلى طبيعتها النفسية التي تتابع حللتها.

وما يندرج تحت رسائل العائلة رسائل دوستوفسكي، فكثير من الرسائل موجه إلى أمه ماريا التي كان يرتبط بها بعاطفة شديدة، وأبيه ميخائيل وكان يصف له فيها تقدمه (هو وإخوته) في الدراسة، ومنها رسائله إلى أخيه ميخائيل؛ إذ كانت تربطه به علاقة وثيقة، وعندما حكم عليه بالانفعال الشاق في سجن سيبيريا، كتب إليه واصفاً شعوره المرعب بارتقاب المصير، ثم بعد خروجه من السجن ونجاته كتب إليه يصف شعوره بالحرية، فمما يقول له «الحياة موجودة في داخلنا وليس في العالم الخارجي»، وأهم شيء نقله لأخيه هو أنه - في السجن - اكتشف شخص آخر.

13 ص ينشر كاملة على الموقع الإلكتروني

«هلاً نزلتني من عليا... وتشجمتني بعض المشقة من أجل عبدك»، كان خاضعاً لها فلم تنقطع عادة مراسلتها وهو ينتقل من بلد إلى بلد، ففي كل بلد كانت هي حاضرة يبتها أشواقه، وقده لها، ورغبته في اعتصارها بين يديه، ولثمة، ويقرن حبها للنساء الطبيعيات الوفيات الحسان «لأنهن يشبهنك كما يقول لها».

كما تفضح الرسائل مكنون النفس، فيبتوهن الذي كان متحفلاً في موسيقاه، يفرض على نفسه أشد القيود، كان على العكس تماماً في رسالته، إذ كان يطلق لنفسه العنان، ويتدفق شعوره كسيل، فيقول لجيلينا حبيبته «إن حُبك لي عظيم ولكن حبي لك أعظم، فما أشقى الحياة من غير أن تكوني معي» ومرة ثانية يبعث لها قائلاً «أنا

الآن في فراشي، ولكن أفكاري تحوم حولك يا حبيبتي الخالدة، وهي أنا أفكار سارة، وأنا حزينة» حتى إنه يختار «إما أن أعيش كلي معك، وإما ألا أعيش أبداً»، ومرة أخرى «إن حُبك لي يجعلني أسعد الناس وأشقاوم معاً» ولا يخجل من أن يعترف بأن الحب أنه «فما أكثر ما نرفت من الدعم اليوم وأمس شوقاً إليك أنت أنت حياتي كلي السوداء حافظي علي حُبك لي ولا تشكي قط في قلب حُبك الوفي المخلص لك. فانا لك أبداً وأنت لي أبداً وكلانا للأبد أبداً».

وتكشف الرسائل عن تدخلات السياسة، وإملاءاتها على الكاتب، فمثلاً اقترح بعض الأصدقاء على مدام دي ستال أن تكتب شيئاً عن مولد ملك روما ابن نابليون؛ كي تنال رضاه، إلا أنها ابت، وبالمثل فعلت الروائية البريطانية جين أوستن، عندما طلب منها أن تكتب رواية غرامية تشيد بامجاد آل ساكس كويرج، وتهديها إلى الأمير ليو بولد، على غرار روايتها الأولى «إيما» التي أهبتها للوصي بناء على طلب أمين مكتبة الصبي فتاة خبيثة سمجة حققاء، وبين سبب ثورته وغضبه قائلاً «إنك لا تكتبين لي، إنك لا تحبين زوجك، وأنت تعرفين ما تدخله رسائلنا معها بسبب إهمال ومع شدة معاناته معها بسبب إهمال رسائله، ونزقها، حتى إنه كان يطالبها

حاولت عبثاً أن أتجنبه (الحب)، وأنا فيلسوف ولكن هذا الحب العارم استبدت بعقلي فغلب على حكمتي، وكانت سهامه أقوى من منطقي واستدلالي».

تكشف لنا الرسائل عن عشاق يتخفون في ثياب سياسة وقادة عسكريين، وكتاب وفنانين، وطغاة، فمن نابليون بونابرت وبيرون وبيتهوفن واللورد نلسون، إلى جوزيف غارibaldi، وهي تدل على أن هؤلاء القادة لا تُسلِّمهم المعارك عن معشوقاتهم، ولا تصرفهم ويلات الحرب وأهوالها عن الاستجابة لخفان القلوب، فالسلطان سليمان العظيم بعد أن وقع في هيام جاريته حُرِّم سلطان (الفتاة الروسية الصديق، قد يقوله الناس «إنهم عبيد» كما يُرسل لها متغزلاً قائلاً «يا عرش محرابي، وثروتي، وحبتي، وضوء قلمي، صديقتي الأغر، خلبيتي، جوهر وجودي، وسلطاني. الأجمل بين كل الجميلات، يتبع وقتي...».

سأغني مدائحك دائماً» وبالمثل نابليون بونابرت القائد العسكري لم تشغله فتوحاته ومعاركه عن أن يظهر عشقة ودلالة لمحبيبته، مرة «جوزيفين» ومرة الكونتيسة «ماري لوسكا» التي كان يتوسل لها. ويقر

المؤرخون أن نابليون قد كتب أو أملى ما بين 55 ألف و75 ألف رسالة، ما طبع منها تقريباً 41 ألف رسالة، وقد خص جوزفين برسائل متعددة، منذ أن عرض عليها صداقته، وظل متمسكاً بحبها مع ما كان يحيط به من أخطار في المعارك، ومنذ أن راهها وكانت أرملة في الثانية والثلاثين من عمرها، تعلق بها وظل حبه لها مستيطراً على حياته، ولم تنقطع رسائله إليها رغم أخطار الحرب وشؤون الحكم، فقد أوجت لنابليون - كما يقول - «بحب سلب عقلي، فلا أستطيع الأكل ولا النوم ولا العناية بالاصدقاء ولا الاهتمام بالجد، وحتى النصر نفسه لا أقدره إلا لأنه يدخل السرور عليك، وملا قلبي حباً لا حد له...».

وقد تخلى نابليون وهو القائد العسكري صاحب الانتصارات في المعارك عن جده وصرامته العسكرية في رسالته، فكان عاشقاً يغضب لأن المحبوبة لم تُرسل له رسائل رداً على ما أرسل، فيقول «لست أحبك مطلقاً، بل إنني أمقتك، إنك فتاة خبيثة سمجة حققاء، وبين سبب ثورته وغضبه قائلاً «إنك لا تكتبين لي، إنك لا تحبين زوجك، وأنت تعرفين ما تدخله رسائلنا معها بسبب إهمال ومع شدة معاناته معها بسبب إهمال رسائله، ونزقها، حتى إنه كان يطالبها

الذين تغضب عليهم يا مولاي بلقون المهانة في أوروبا بسبب هذا الغضب» ومع هذا فلم ياذن لها بالعودة، بل تم إتلاف كتابها عن ألمانيا.

ومن الرسائل ما يكشف عن عقيدة فلسفية ومبادئ لصاحبها، ففي رسالة الفيلسوف «سينكا» إلى «ولسليس» الفيلسوف الأبيقوري، مبادئ فلسفة سينكا الخلقية التي تبحث في الأسفار والصحة والدين والعلوم والموت ومباريات المصارعين، والسرقة وغيرها. ومما جاء في رسالته «يسرني ما حدثني به بعض القادمين من عندك، وهو أنك تعيش مع عبيدك معيشة الصديق مع الصديق، قد يقوله الناس «إنهم عبيد» كما يُرسل لها متغزلاً قائلاً «يا عرش محرابي، وثروتي، وحبتي، وضوء قلمي، صديقتي الأغر، خلبيتي، جوهر وجودي، وسلطاني. الأجمل بين كل الجميلات، يتبع وقتي...».

كما أنه لا يجد غضاضة في جلوس الرجل مع عبيده على المائدة، بل يسخر ممن يظنون في الأمر ما يشينهم ويحط من قدره، وينتهي إلى قوله «عاملوا من هم دونكم كما تحبون أن يُعاملكم من هم فوقكم» ويوجه بأن «يجب أن يُقدَّر الناس بالأخلاق يكسبها الرجل نفسه، أما الأعمال التي يؤديها فإن الظروف هي التي تخلفها له».

وقد تكون الرسائل بمثابة كاميرا توفق ما حل بالبلدان من دمار وخراب، فسان جيروم في رسالة بعثها لصديق يشهد اضمحلال روما وسقوطها واصفاً الأحوال هكذا «لقد نزلت بنا في هذه الأيام مصائب تقشعر من هولها الأبدان، فقد ظلت دماء الرومان عشرين عاماً كاملة تُراق كل يوم في طول البلاد وعرضها من القسطنطينية إلى جبال الألب، وابتحاج البلاد القوط والألانين والهون والوندال» ونراه يتحسر على ما لت إليه المدينة وقد سادت العالم من قبل، فغدت «أسيرة في يد الإعداء، يجتاحها القحط ويموت أهلها من الجوع».

## رسائل العشاق

يتضمن الكتاب كذلك رسائل تحلّد قصص الحب في وقتها، ومن هذه الرسائل رسالة هلواز وبيتر أبلار الذي هو سليل الأسر الشريفة المسورة في فرنسا في العصور الوسطى، كان قد حصل من العلم ما لم يحصل غيره من أبناء الأشراف، فهو أستاذ للمنطق في جامعة باريس، وواحد من كبار رجال كنيسة نوردام، أما هلواز فكانت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها من إحدى مدارس الأبرية، جاءت إلى بيت عمها لتستمع إلى محاضراته الشيقة في باريس، وأعجب بها أبلار، وأشاد بجمالها وصفاتها في رسالة لأحد أصدقائه، حتى أنه يظهر مقاومته لسهم كيوييد «لقد

لا خلاف على الأهمية التاريخية والأدبية للرسائل التي يكتبها المشاهير من السياسيين والأدباء والفنانين، فصدوق الرسائل كما قال شيشرون «مستودع مقدس، يضع فيه الناس أسرارهم وهم واثقون من أنهم قد ألقوا بها في مكان أمين، وأن ما حوته من الأسرار لن يطلع عليه إلا المرسل إليه»، وهي أيضا في ذات الوقت «مرآة القلب الصادقة التي ينعكس عليها ما يدور بخلد الإنسان وما يخفيه في قرارة نفسه»، وهي وثائق هامة في حياة الكتاب والفلاسفة والسياسيين.

مُنْتَخبة لأشهر الرموز التاريخية منذ قبل الميلاد حتى القرن العشرين.

ويقدم المؤلف في كتابنا لتتميزات مختلفة لأشهر الرسائل، دون أن يقصرها على نوع محدد بل شملت ما يصف العواطف من حب واستعطاف، وما يُعنى بالحادثات الهامة التي غيرت مجرى التاريخ، أو بالشخصيات البارزة التي كان لها أعظم الأثر في هذا العالم، ملوكا كان أصحابها أو فلاسفة أو رجال دين، رجالا أو نساء، شبيبا أو شيبا.

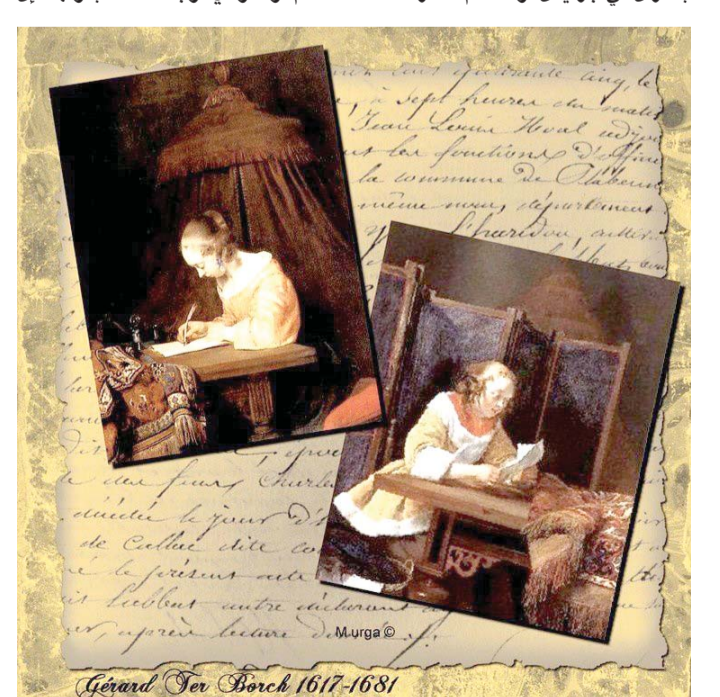
وجوهر هذه الرسائل يُلقى ضوءاً ساطعاً على أهم حوادث تاريخ الإنسانية: كبداءة المسيحية والنهضة الأوربية، والثورة الأميركية، والثورتين الفرنسية والروسية، والانقلابين: النازي والفاشي، وأيضا على حياة العلماء الأعلام مثل داروين وهكسلي ومدام كوري.

وقد تأتي الرسائل كتهديد صريح واستخفاف بالخصم، كما في رسالة دارا الثالث إلى الإسكندر، وهو يصفه فيها «بالص الذي جمع حوله طائفة من اللصوص أمثاله، واتخذ طريقه إلى بلادنا» ويطلبه صراحة بأن «تغادر من فورك المكان الذي تقدمت إليه»، وما إن وصلت رسالة دارا إلى الإسكندر حتى أثارت غضبه وكاد أن يقطع رؤوس حاملها، فكتب إلى دارا قائلاً «ألا تعلم أنني عقدت النية على لقاك في ميدان القتال، وهانذا سائر إلى بلادك، مُقِرُّ بأنني خادمٌ لله، ضعيف ذليل، أتضرع إليه واستغفره وأمجده».

نفس الشيء نراه في رسائل أولرين إمبراطور الرومان وهو يامر زونوبيا ملكة تدمر بأن تستسلم هكذا «عليك أن تسلمي المدينة» بل يامرها هي وأبنائها بالرحيل حيث المكان الذي «ارتضيه لكم ويرضيه مجلس روما الموقر»، وهو ما قابلته الملكة بسخرية وتحذ قائلة «ما من شك في أنك ستبدل يومئذ لهجتك».

ومن الرسائل ما يكون استعطافاً يطلب العفو والصفح، فاجرينا أم نيرون (وهي التي اعانته على اعتلاء عرش الإمبراطورية الرومانية في عام 54 ق. م، بدل برتنس الوارث الشرعي) كتبت إليه تستعطفه، مُنكرة لتهمة الخيانة التي الصقتها بها محبيلته، وأن يعفو عنها، فراح تذكروها باموتها «لقد حملتكم في رحمي.. وغذيتكم بدمي»، ومرة ثانية «الست تعرف يا ولدي ما تنطوي عليه قلوب الأمهات كلهن من حب لابنائهن؟ إنه حب لا تحده حدود».

الغريب أن نيرون لم يتأثر بدفاع أمه عن نفسها فامر بإعدامها. وهو ما حدث مع مدام دي ستال، عندما أرسلت إلى نابليون بونابرت، فبعد أن كتبت رواية بعنوان «الفين» 1802، والتي أثارت صدمة عنيفة في الأوساط الأدبية في باريس لما حوته من آراء جريئة في الدين والزواج والسياسة، ترجوه بأن يلغي أمر نفيها، وراحت تتوسل إليه وتصفه بأنه «سيد العالم، ومولاي، وجلالتك»، بقولها «إن



الأدباء أكثر من كانت رسائلهم مؤثرة

ممدوح فراج النابلي  
كاتب مصري

الرسائل أو بتعبير المؤرخ البريطاني سيمون سيباغ مونتفيوري «التاريخ المكتوب»، تعتبر بمثابة «وثيقة حية تُسجل الحياة العقلية لكاتبها، وتُعين على تحليل غرائزه وعواطفه، والأسس الحقيقية التي تقوم عليها أعماله». علاوة على أنها تبرز أدواراً جديدة ومتناقضة لكاتبها، فالفارس الشجاع في ميدان المعركة، ضعيف جبان في ميدان الحب والعشق، والشخصية الجادة في حياتها العملية، مرحة ومتحزرة من القيود والرسومات في رسائل الهيام والعشق. ونظراً إلى هذه الأهمية - التاريخية والأدبية - وصفت الرسائل بأن لها «أروحا، وإنها لتتكلم، وإن فيها من القوة ما يُعبر عن نشوة القلب، وليس ينقصها شيء من حرارة العواطف، وإنها لتبعثها في القلب كما يبعثها الكاتب نفسه، وفيها كل ما للكلام من حنو، وقد يكون فيها أحياناً من الجرأة على التعبير ما لا يستطيعه الكلام»، فالرسائل الشخصية - ببوحها وفضفضتها اللامحدودين - تكشف الأبعاد المضرة للشخصيات، وكذلك السياقات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي ارتبطت بالزمن المستعاد (أو الزمن المقفود - الزمن الحلمي).

مؤرخو الأدب ونقادهم  
اعتنوا كثيراً بالرسائل على اختلاف كتابتها؛ فجمعوا ما وصلوا إليه لأنها تمثل كشوفات هامة

كما أنها تقدم المراحل الهامة التي ساهمت في نحت مسار التكوين النفسي للشخصية، وفي سبيل ذلك تسعى - دون قصد بالطبع - لأن تقدم صورة لتطورات الشخصية، وتحولاتها من الحب إلى الكراهية، والقوة إلى الضعف، والإقبال على الحياة إلى الانسحاب منها، والمرح إلى الاحتئاب.

## التاريخ المكتوب

اعتنى مؤرخو الأدب ونقادهم - قديماً وحديثاً - بالرسائل على اختلاف كتابتها؛ سياسيين، أدباء، فنانين، قادة عسكريين، إلخ.. فجمعوا ما وصلت إليهم أيديهم، في كتابات منفردة تارة أو في كتابات مجمعة تارة ثانية، ومن هذه الكتب التي احتوت على العديد من رسائل المشاهير كتاب «أشهر الرسائل العالمية من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر»، والذي ترجمه محمد بدران في جزأين، وقد ضم 128 رسالة